المحاضرة السابعة
موسيقى الرباعيات

أولا: تعريفها:

الرّباعية هي أحد فنون الشعر، وتسمى أيضا الدوبيت وهي لفظة مكونة من كلمتين - إحداهما «دو» بمعني اثنين، والأخرى «بيت» بمعني بيت الشعر. وقد جاء في معجم كشاف اصطلاحات الفنون : «هو بيتان من الشعر متفقان في الوزن والقافية، وليس من شرطه موافقة المصراع الثالث»[1]

ثانيا: تاريخ الرباعيات:

اختلف بعض أهل الرأي في أصل الرباعيات، فانقسوا إلى فريقين:

الفريق الأول: يرى أصحابه أنّ الرباعيات قديمة في الشعر العربي، ولكن الشعراء لم يخصّوها بوزن معيّن، بل نظموها في أغلب أوزان الشّعر، ويجعل الأصفهاني أقدم من نظم في الرباعيات علس ذو جدن الحِمْيَرِي، فمن رباعياته قوله: ما بال أهلك يا ربـاب خـــزرا كأنّهم غضاب

إن زرت أهلك أوعدوا وتهـرّ دونــهم كـلاب

كما يشير أصحاب هذا الرأي إلى أنّ شعراء الفرس قد أخذوا الفنّ من الشعر العربي، لكنهم تخلوا فيه عن الأوزان العربية، وراعو فيه طرائق مختلفة في بنية قوافيهم.

الفريق الثاني: وهو الرأي السائد والغالب، ويؤكّد أصحابه أنّ الرباعيات ظهرت أوّلا في الشعر الفارسي، ثمّ انتشرت فيما بعد عند العرب. حيث يكاد المحدثون يجمعون على فارسية الدوبيت، فهذا (بْرَاوْن) يوشك أن يجعل من الرباعيات من أقدم ما صلنا من الشعر الفارسي. وفي هذا الشأن يشير شمس الدين قيس الرازي في معجمه (المعجم في معايير أشعار العجم) أنّ الشاعر الفارسي عبد الله بن جعفر بن محمد السمرقندي (ت 329هـ/940م) والمدعو بـ (الرّودكي) هو مكتشف وزن الدوبيت، حيث يعود اكتشافه لهذا الفنّ الشعري إلى أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع الهجري.

ولعل أشهر من نظم في الرباعيات فضلا عن (الرودكي) شهيد البلخي (ت 325هـ/ 936م)، والدقيق الطوسي (ت 368هـ/ 978م)، وأبو سعيد ابن أبي الخير (ت 440هـ/ 1049م)؛ وغيرهم. أما أشهر من نظم الرباعيات فهو الشاعر والعلم والفيلسوف عمر الخيام[2] ، ولقد ترجمة هذه الرباعيات عدّة مرات إلى اللغة العربية، ولعلّ أشهر ترجمة لها كانت مقبل الشاعر المصري المصري أحمد رامي.

ثالثا: وزن الرباعيات:

يعاني هذا الفنّ كغيره من الفنون المستحدثة في الشعر العربي من إشكاليات في بناء وزنه، ونستثني من هذه الإشكاليات الرباعيات الّتي بنيت على الأوزان الخليلية، أمّا تلك الّتي خرجت عن هذا الأوزان فقد اختلف النقّاد والعروضيون في تحديد أوزانها، ولعلّ الوزن المشهور للدوبيت

---

[1] - التهانوي، محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج1، ط1، بيروت: مكتبة لبنان، +1996، ص 842.

[2] - وهو غِيَاثُ الدِّينِ أبو الفُتُوحِ عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ صَالِحٍ الخَيَّامُ النَّيْسَابُورِيُّ والخيّام لقب والده الذي كان يصنع الخيام، هو عالم فلك ورياضيات وفيلسوف وشاعر فارسي مسلم، ويذهب بعضهم إلى أن أصوله عربية. وُلِدَ في مدينة نيسابور من خراسان ما بين (1038 و1048هـ)، وتوفي فيها ما بين (1123 و1124هـ)، وهو بعمر 83 عاما، يعود إليه الفضل في اختراع طريقة حساب المثلثات وحل المعادلات الجبرية التي من الدرجة الثالثة بواسطة قطع المخروط وهو صاحب الرباعيات المشهورة.

الّذي يكاد يتفق عليه أهل العروض هو: **(فَعْلُنْ متفاعلن فعولن فَعِلُنْ).** وقد حدّد له شهاب المصري مفتاحه حيث قال:

دوبيت لنظـــم فارس ميزان ما خصّصهم بكسبه الإمـكان
فَعْلُنْ متفاعلن فعولن فِعْلُنْ (بل ران على قوبهم ما كـانوا)

أ- **أنواعه:**

جعلوا لهذا الوزن **أنواعا،** منها التام والمجزوء[3]، وله من الأعاريض خمس ومن الأضرب سبعة:

1- **التام** له عروضان وأربعة أضرب:

الأولى صحيحة(فَعِلُنْ) ولها ضربان؛

الأول مثلها(فَعِلُنْ): إن جزت بحيّ ساكنين العلما من أجلهم حالي، كما قد عُلما
قل عبدكم ذاب اشتياقا لكم حتّى لو مات من ضنى ما علما

الثاني: مسبّغ (فَعِلُانْ): بالذل رفعت قصّة الهجر إليه والأرض لثمت خاضعا بين يديـه
في الحـال إلى حاجبيه وقع لي هذا الشـاكي يزاد في الجـوّ عليـه

الثانية مضمرة(فَعْلُنْ) ولها ضربان؛

الأول مثلها مضمر(فَعْلُنْ)[4]: لا تَحسَب زَورَةَ الكَرى أَجفاني مِن بَعدِكَ مِن شَواهِدِ السُلوانِ
ما أَرسَلَتِ الرُقـــادَ إِلّا شَـرَكاً تَصطادُ بِهِ شَوارِدَ الغِـــــزلانِ

الثاني مسبّغ (فِعْلُانْ): خلّ له حاجب جميل فتّـانْ قد جـــــاد عليّ في أنيق البُسْتانْ
أوقات وصالك الشـهيّ شهْدٌ يا من سحر الورى جميعا والجـانْ

2- **المجزوء:** له عروضان وضربان:

الأولى صحيحة (فعولن) ولها ضرب واحد مثلها:

يا من لعبت به شمول ما ألطف هذه الشمـائل
نشـــوان يهـزّه دلال كالغصن مع النّسيم نائل

الثانية محذوفة (فعو= فعل) ولها ضرب واحد مثلها:

للّه معاهد الحـــمى ما أحسنـــها مع الدمى
قدْ قُدَّ مُهجتي الهوى حتّى امتزج الدمـع دما

ب- جوزاته:

وممّا يطرأ على حشو هذه الأجزاء أنّ **متفاعلن،** قد تُسكّنُ تاؤها بالإضمار، وقد يُزاد بعد عينها ياءً، فيستعملونها **متفاعيلن،** وقد يحذفون النون منها عند زيادة الياء[5]

رابعا: لغة الرباعيات:

الأصل في الرباعيات أو الدوبيت أن يكون معربا من حيث الألفاظ والتراكيب، ولكن ميل الشّعر بوجه عام إلى التأثّر باللغة المحكية في أساليبها في العصور المتأخّرة جعل اللحن والعامية يدخلان إليه. وقد كثر الدوبيت الملحون حتّى ليكاد يطغى من حيث الكمّ على الفصيح، ويعد الدوبيت الصوفي هو أكثر الأنواع ميلا إلى العامية واللحن.

---

[3] - قد تأتي الرباعيات مشطورة أو منهوكة ولها عروض واحدة صحيحة (متفاعلن) ولها ضرب واحد مثلها.

[4]- البيتان لصفي الدين الحلّي

[5] - ابن أبي شنب: تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب، ص114.

خامسا: أنواع الرباعيات:

بحسب مصطفى صادق الرافعي، فإن للرباعيات باعتبار القوافي خمسة أنواع:

1- **الرباعي المعرج**: ويشترط في قوافيه أن يكون بين الثلاثة منها أو [بين] أربعتها الجناس التام، كقول الشاعر: يا من بسنان رحمه قد طعنا والصارم من لحظة قطعنا

ارحـم دنفا في سنه قد طعنا في حبك لا يصيبه قط عنا

2- **الرباعي الخاص:** ويشترط فيه أن تكون كل قافيتين متقابلتين بينهما جناس تام- ويقولون إن مثاله: أهـــوى رشا بلحظة كلمنا رمزا وبسيف لحظة كلمنا

لو كان من الغـرام قد سلّمنا ما كان لـــه بيـده سلّمنا

3- **الرباعي الممنطق:** وهو ما يسميه بعضهم بالمرصّع؛ وهو ما كان أشطره الأولى تامّة والشطر الثاني عبارة عن فقرة تجيء على وزن (فِعْلن فعلن)، وقد يكون هذا النوع من الرباعيات مصرعة جميع أشطره، كما قد يكون من النوع المخالف نحو قول الشاعر:

قد قد لهجتي غـــــرام ونشر والقلب ملك

من كان يراك قال ما أنت بشر بل أنت ملك

4- **الرباعي المرفّل**: وهو الّذي يتضمّن رباعية تامّة المعنى، وإلى جانب كلّ مصراع منها فقرتان، نحو قول الشاعر: بدر إذا رأتـــه شمس الأفق كسفت ورقى في يوم أحد

عوّدت جماله بـــربّ الفلق وبمـــا خلـقا من كل أحد

5- **الرباعي المردوف**: وهو الّذي يتضمّن رباعية تامّة المعنى، وإلى جانب كلّ مصراع منها ثلاث فقرات تجيء على وزن (فِعْلن فعلن)، نحو قول الشاعر:

يا مرسـلا للأنام جـاها وحـمى ها أنت لنا عـزا وهـــــدى في أيّ مـدد

يا أفضـل من مشى بأرض سما يا شافعـنا في الحشر غـدا غوثنا ومدد